التوبة والاستغفار

مع الرضا والصبر والشكر

تصنيف

محمد جمال امام

القاهرة الجديدة، جمهورية مصر العربية

٤ ربيع آخر ١٤٣٧ هـ

١٤ يناير ٢٠١٦

التوبة والاستغفار

*٤٢٦٤- قرأت على أبي، حدثنا علي بن عاصم، قال: أخبرنا الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: التوبة من الذنب، أن يتوب منه ثم لا يعود فيه. (**رواه أحمد**)

*٤٢ - (٢٧٠٢) حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا غندر، عن شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي بردة، قال سمعت الأغر، وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، يحدث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة.** (**رواه مسلم**)

[ش (توبوا إلى الله) هذا الأمر بالتوبة موافق لقوله تعالى وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون، وقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا قال العلماء **للتوبة ثلاث شروط: أن يقلع عن المعصية، وأن يندم على فعلها، وأن يعزم عزما جازما أن لا يعود إلى مثلها أبدا. فإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فلها شرط رابع وهو رد الظلامة إلى صاحبها أو تحصيل البراءة منه. والتوبة أهم قواعد الإسلام وهي أول مقامات سالكي طريق الآخرة**]

* (٢٧٠٢) حدثنا يحي بن يحي، وقتيبة بن سعيد، وأبو الربيع العتكي، جميعا عن حماد، قال يحي، أخبرنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أبي بردة، عن الأغر المزني، وكانت له صحبة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة. (**رواه مسلم**)

[ش (ليغان) قال أهل اللغة الغين والغيم بمعنى واحد والمراد هنا ما يتغشى القلب، قال القاضي قيل المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي شأنه الدوام عليه، فإذا افتر عنه أو غفل عد ذلك ذنبا واستغفر منه]

* وعنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضِي اللَّه عنْهما قَال: قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم: «**مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَار جعل اللَّه لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مخْرجاً، ومنْ كُلِّ هَمٍّ فَرجاً، وَرَزَقَهُ مِنْ حيْثُ لا يَحْتَسِبُ**». (**رواه أبو داود**). (ورد في رياض الصالحين)

* (٢٢٣) حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا حبان بن هلال، حدثنا أبان، حدثنا يحيى، أن زيدا حدثه أن أبا سلام، حدثه عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو تملأ) ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، **والصبر ضياء**، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها (رواه مسلم)

[ش (الطهور) قال جمهور أهل اللغة يقال الوضوء والطهور بضم أولهما إذا أريد به الفعل الذي هو المصدر ويقال الوضوء والطهور بفتح أولهما إذا أريد به الماء الذي يتطهر به. (شطر) أصل الشطر النصف. (الصلاة نور) فمعناه أنها تمنع من المعاصي، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وتهدي إلى الصواب، كما أن النور يستضاء به. (والصدقة برهان) قال صاحب التحرير معناه يفزع إليها كما يفزع إلى البراهين، كأن العبد إذا سئل يوم القيامة عن مصرف ماله كانت صدقاته براهين في جواب هذا السؤال فيقول تصدقت به. (والصبر ضياء) فمعناه الصبر المحبوب في الشرع وهو الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، والصبر أيضا على النائبات، وأنواع المكاره في الدنيا، والمراد أن الصبر محمود ولا يزال صاحبه مستضيئا مهتديا مستمرا على الصواب. (والقرآن حجة لك أو عليك) معناه ظاهر أي تنتفع به إن تلوته وعملت به وإلا فهو حجة عليك. (كل الناس يغدو الخ) فمعناه كل إنسان يسعى بنفسه فمنهم من يبيعها الله بطاعته فيعتقها من العذاب، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى بإتباعها فيوبقها أي يهلكها.]

*(١٠٥٣) حدثنا قتيبة بن سعيد، عن مالك بن أنس، فيما قرئ عليه عن ابن شهاب، عن عطاء بن يزيد الليثي، عن أبي سعيد الخدري أن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى إذا نفد ما عنده قال: "ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، **ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يصبر يصبره الله، وما أعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر**. (رواه مسلم)

[ش (خير وأوسع من الصبر) هكذا هو في جميع نسخ مسلم خير مرفوع وهو صحيح وتقديره هو خير]

* ٦٤٧٠ - حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، قَالَ أَخْبَرَنِي عَطَاءُ بْنُ يَزِيدَ اللَّيْثِيُّ، أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ أَخْبَرَهُ أَنَّ أُنَاسًا مِنْ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ يَسْأَلْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَعْطَاهُ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ نَفِدَ كُلُّ شَيْءٍ أَنْفَقَ بِيَدَيْهِ:"مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ لَا أَدَّخِرْهُ عَنْكُمْ، وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، **وَلَنْ تُعْطَوْا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ** (رواه البخاري)

* ٢٢٣٦٧- حدثنا عبد الرازق..عن..عن .. عن معاذ بن جبل، قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم برجل وهو يقول: اللهم إني أسألك الصبر، فقال:"**لقد سألت البلاء فسل الله العافية**". وقال: ومر برجل وهو يقول: **يا ذا الجلال والإكرام**، قال:"**استُجيب لك فسل**". ومر برجل يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة، فقال:"يا ابن آدم، أتدري ما تمام النعمة؟" قال: دعوت دعوة بها أرجو الخير. قال: "**فإن تمام النعمة فوز من النار ودخول الجنة**".
(رواه أحمد)

يقول الإمام ابن تيمية في كتابه: الوصية الجامعة لخير الدنيا والآخرة

وصى النبي صلى الله عليه وسلم معاذا لما بعثه الى اليمن فقال:"**يا معاذ: اتق الله حيثما كنت، واتبع الحسنة السيئة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**". وكان معاذ رضي الله من النبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة عليّة، فإنه قال له:"**يا معاذ: والله إني لأحبك**" * رواه أبو داود[١٥٢٢]، والنسائي [٣\٥٣]*، وكان يردفه وراءه. وروي فيه أنه أعلم الأمة بالحلال والحرام.

ثم إنه صلى الله عليه وسلم وصاه هذه الوصية، **فعُلم أنها جامعة**، وهي كذلك لمن عقلها، مع أنها تفسير الوصية القرآنية. أما بيان جمعها، فلأن العبد عليه حقان: حق الله عز وجل، وحق لعباده. ثم الحق الذي عليه لا بد أن يخل ببعضه أحيانا، إما بترك مأمور به، أو فعل منهيّ عنه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:"**اتق الله حيثما كنت**"، وهذه كلمة جامعة، وفي قوله:"حيثما كنت"، **تحقيق لحاجته الى التقوى في السر والعلانية**. ثم قال:"واتبع السيئة الحسنة تمحها". والذنب للعبد كأنه أمر حتم. فالكيّس هو الذي لا يزال يأتي من الحسنات بما يمحو السيئات. وإنما قدم في لفظ الحديث "السيئة" وإن كانت مفعولة، لأن **المقصود هنا محوها لا فعل الحسنة**. وينبغي أن تكون الحسنات من جنس السيئات، فإنه أبلغ في المحو. والذنوب يزول موجبها بأشياء: أحدها: **التوبة**، والثاني: **الاستغفار من غير توبة**. فإن الله تعالى قد يغفر له إجابة لدعائه وإن لم يتب، **فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال**، الثالث: **الأعمال الصالحة المكفرة**، إما الكفارات المقدرة كما يكفّر المجامع في رمضان والمظاهر ولمرتكب لبعض محظورات الحج أو تارك بعض واجباته أو قاتل الصيد بالكفارات المقدرة، وهي أربعة أجناس: هدي وعتق وصدقة وصيام. وإما الكفارات المطلقة كما قال حذيفة لعمر:"**فتنة الرجل في أهله وماله وولده يكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**". وقد دلّ على ذلك القرآن والأحاديث

الصحاح في التكفير بالصلوات الخمس والجمعة والصيام والحج وسائر الأعمال التي يقال فيها: من قال كذا وعمل كذا غُفر له، أو غفر له ما تقدم من ذنبه. واعلم أن العناية بهذا من أشد ما بالإنسان الحاجة إليه، فإن الإنسان من حين يبلغ، خصوصا في هذه الأزمنة ونحوها، من أزمنة الفترات التي تشبه الجاهلية من بعض الوجوه، فإن الإنسان الذي ينشأ بين أهل علم ودين قد يتلطخ من أمور الجاهلية بعدة أشياء، فكيف بغير هذا؟

فأنفع ما للخاصة والعامة العلم بما يخص النفوس من هذه الورطات وهو إتباع السيئات الحسنات. **والحسنات ما ندب الله إليه على لسان خاتم النبيين من الأعمال والأخلاق والصفات**. ومما يزيل موجب الذنوب: **المصائب المكفِّرة**، وهي كل ما يؤلمك من هم أو حزن أو أذى في مال أو عرض أو جسد أو غير ذلك، لكن ليس هذا من فعل العبد.

فلما قضى بهاتين الكلمتين: حق الله من عمل الصالح وإصلاح الفاسد، قال:" وخالق الناس بخلق حسن" **وهو حق الناس**. وجماع الخلق الحسن مع الناس أن تصل من قطعك بالسلام والإكرام والدعاء له والاستغفار والثناء عليه والزيارة له، وتعطي من حرمك من التعليم والمنفعة والمال، وتعفو عمن ظلمك في دم أو مال أو عرض. وبعض هذا واجب وبعضه مستحب. وأما الخلق العظيم الذي وصف الله به محمدا صلى الله عليه وسلم فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقا، هكذا قال مجاهد وغيره وهو تأويل القرآن، كما قالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن، **وحقيقته المبادرة الى إمتثال ما يحبه الله تعالى بطيب نفس وإنشراح صدر**.

وأما بيان أن هذا كله في وصية الله، فهو أن اسم **تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به إيجابا وإستحبابا، وما نهى عنه تحريما وتنزيها؛ وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد**. لكن لما كان تارة يُعني بالتقوى خشية العذاب المقتضية للانكاف عن المحارم، جاء مفسّرا في حديث معاذ، وكذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنهما الذي رواه الترمذي وصححه، قيل: يا رسول الله ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال:"**تقوى الله وحسن الخلق**". قيل: وما أكثر ما يدخل الناس النار؟ قال:" الأجوفان: الفم والفرج".

فجعل **كمال الإيمان في كمال حسن الخلق**. ومعلوم أن الإيمان كله تقوى الله، لكن ينبوع الخير وأصله: **إخلاص العبد لربه عبادة واستعانة** كما في قوله:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(٥)}، الفاتحة، وفي قوله:{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}،[هود ١٢٣]، وفي قوله:{عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠)}، الشورى، وفي قوله:{فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ}،[العنكبوت ١٧]، بحيث يقطع العبد تعلق قلبه من المخلوقين انتفاعا بهم أو عملا لأجلهم، ويجعل همته ربه تعالى، وذلك بملازمة الدعاء له في كل مطلوب من فاقة وحاجة ومخافة غير ذلك، والعمل له بكل محبوب. ومن أحكم هذا فلا يمكن أن يوصف ما يعقبه ذلك.

وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض فإنه يختلف بإختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد. لكن مما هو الإجماع بين العلماء باله وأمره: **إن ملازمة ذكر الله دائما هو أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة**، وعلى ذلك دلّ حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم:"سبق المفرّدون"، قالوا: يا رسول الله، ومن المفرّدون؟ قال:"الذاكرون الله كثيرا والذاكرات". وفيما رواه أبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟"، قالوا: بلى يا رسول الله، قال:"ذكر الله". ثم يُعلم أن كل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب مما يقرّب الى الله تعالى من تعلم علم وتعليمه وأمر بمعروف ونهي عن منكر، **فهو من ذكر الله**. ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض، أو جلس مجلسا يتفقه أو يفقه فيه الفقه الذي سماه الله ورسوله فقها، فهذا أيضا من أفضل ذكر الله.

وما اشتبه أمره على العبد فعليه بالاستخارة المشروعة، فما ندم من استخار الله تعالى. وليكثر من ذلك ومن الدعاء، فإنه مفتاح كل خير، **ولا يعجل فيقول قد دعوت فلم يُستجب لي**. وليتحرّ الأوقات الفاضلة كآخر الليل وأدبار الصلوات وعند الآذان، ووقت نزول المطر ونحو ذلك.

وأما أرجح المكاسب: **فالتوكل على الله، والثقة بكفايته، وحسن الظن به**. وذلك أنه ينبغي للمهتم بأمر الرزق أن يلجأ فيه الى الله ويدعوه، كما قال سبحانه فيما يؤثر عن نبيّه: "كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم" (رواه مسلم). وفيما رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"**ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع، فإنه إن لم ييسره له لم يتيسر**". وقد قال الله تعالى في كتابه:{وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ}[النساء ٣٢]، وقال سبحانه:{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠)}[الجمعة]، وهذا وإن كان في الجمعة فمعناه قائم في جميع الصلوات. ولهذا- والله أعلم- أمر النبي صلى الله عليه وسلم الذي يدخل المسجد أن يقول:"اللهم افتح لي أبواب رحمتك" (رواه مسلم) ، وإذا خرج أن يقول:"اللهم أني أسألك من فضلك". وقد قال الخليل صلى الله عليه وسلم:{فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ}[العنكبوت ١٧]، وهذا أمر، والأمر يقتضي الإيجاب. **فالاستعانة بالله واللجوء اليه في أمر الرزق وغيره أصل عظيم**.

ثم ينبغي له أن يأخذ المال بسخاوة ليبارك له فيه، ولا يأخذه بإشراف وهلع، بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء الذي يحتاج اليه من غير أن يكون له في القلب مكانة، والسعي فيه إذا سعى كإصلاح الخلاء. وفي الحديث المرفوع

رواه الترمذي وغيره:"من أصبح والدنيا همه شتت الله عليه شمله، وفرق عليه ضيعته، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له. ومن أصبح والآخرة أكبر همّه جمع الله عليه ما شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة".

وليجتهد أن يعتصم في كل باب من أبواب العلم بأصل مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم. وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه الناس فليدع ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قام يصلي من الليل:"اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، إهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم". فإن الله تعالى قد قال فيما رواه عنه رسوله: "يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم".

ويقول الإمام ابن تيمية في كتابه: كتاب الإيمان الأوسط

دلت نصوص الكتاب والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب أحدها **التوبة**، وهذا متفق عليه بين المسلمين. قال تعالى:{قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم}، وقال تعالى:{ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم}، وقال تعالى:{وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات}، وأمثال ذلك. السبب الثاني: **الاستغفار** كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا أذنب عبد ذنبا فقال: أي رب أذنبت ذنبا فاغفر لي، فقال: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي؛ ثم أذنب ذنبا آخر فقال أي رب أذنبت ذنبا آخر فاغفره لي، فقال ربه: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء. قال ذلك: في الثالثة أو الرابعة". وفي صحيح مسلم عنه أنه قال: "لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم". وقد يقال على هذا الوجه **الاستغفار هو مع التوبة**، كما جاء في حديث "ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم مائة مرة". وقد يقال: بل الاستغفار بدون التوبة ممكن واقع. فإن هذا الاستغفار إذا كان مع التوبة مما يُحكم به عام في كل تائب، وإن لم يكن مع التوبة فيكون في حق بعض المستغفرين الذين قد يحصل لهم عند الاستغفار من الخشية والإنابة ما يمحو الذنوب، كما في حديث البطاقة بأن قول لا إله إلا الله ثقلت بتلك السيئات؛ لما قالها بنوع من الصدق والإخلاص الذي يمحو السيئات، وكما غُفر للبغي بسقي الكلب لما حصل في قلبها إذ ذاك من الإيمان، وأمثال ذلك كثير. والسبب الثالث: **الحسنات**

الماحية، كما قال تعالى: {وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات}، وقال صلى الله عليه وسلم: "الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتُنبت الكبائر"، وقال: "من صام رمضان إيمانا واحتسابا غُفر له ما تقدم من ذنبه"، وقال:"من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غُفر له ما تقدم من ذنبه"، وقال"من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه"، وقال:"فتنة الرجل في أهله وماله وولده تُكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، وقال:"من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضوا منه من النار حتى فرجه بفرجه". وهذه الأحاديث وأمثالها في الصحاح. وقال: "الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب". وسؤالهم على هذا الوجه أن يقولوا الحسنات إنما تكفر الصغائر فقط، فأما الكبائر فلا تغفر إلا بالتوبة، كما قد جاء في بعض الأحاديث:"ما اجتنبت الكبائر" فيجاب عن هذا بوجوه. (**أحدها**): أن هذا الشرط جاء في الفرائض، كالصلوات الخمس والجمعة وصيام شهر رمضان. وذلك أن الله تعالى يقول: {إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم}. فالفرائض مع ترك الكبائر مقتضية لتكفير السيئات، وأما الأعمال الزائدة من التطوعات فلا بد أن يكون لها ثواب آخر، فإن الله سبحانه يقول: {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره}، {ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره}. (**الثاني**): أنه قد جاء التصريح في كثير من الأحاديث بأن المغفرة قد تكون مع الكبائر، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "غُفر له وإن كان فر من الزحف". وفي السنن" أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في صاحب لنا قد أوجب. فقال:"أعتقوا عنه يعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار". وفي الصحيحين في حديث أبي ذر وإن زنى وإن سرق.. (**الثالث**): أن قوله لأهل بدر ونحوهم "اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"، إن حمل على الصغائر أو على المغفرة مع التوبة لم يكن فرق بينهم وبين غيرهم. فكما لا يجوز حمل الحديث على الكفر لما قد عُلم أن الكفر لا يُغفر إلا بالتوبة، لا يجوز حمله على مجرد الصغائر المكفرة باجتناب الكبائر. (**الرابع**): أنه قد جاء في غير حديث أن أول ما يحاسب عليه العبد من عمله يوم القيامة الصلاة فإن أكملها وإلا قيل: انظروا هل له من تطوع فإن كان له تطوع أُكملت به الفريضة، ثم يُصنع بسائر أعماله كذلك. ومعلوم أن ذلك النقص المكمل لا يكون لترك مستحب؛ فإن ترك المستحب لا يحتاج إلى جبران، ولأنه حينئذ لا فرق بين ذلك المستحب المتروك والمفعول، فعُلم أنه يُكمل نقص الفرائض من التطوعات. وهذا لا ينافي من أن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة، مع أن هذا لو كان معارضا للأول لوجب تقديم الأول لأنه أثبت وأشهر، وهذا غريب رفعه. وإنما المعروف أنه في وصية أبي بكر لعمر وقد ذكره أحمد في "رسالته في الصلاة". وذلك لأن قبول النافلة يراد به الثواب عليها. ومعلوم أنه لا يثاب على النافلة حتى تؤدى الفريضة فإنه إذا فعل النافلة مع نقص الفريضة كانت جبرا لها وإكمالا لها، فلم يكن فيها ثواب نافلة. ولهذا قال بعض السلف: **النافلة لا تكون إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم** لأن الله قد غفر له ما

تقدم من ذنبه وما تأخر وغيره يحتاج إلى المغفرة. وتأول على هذا قوله:{ومن الليل فتهجد به نافلة لك}. **وليس إذا فعل نافلة وضيع فريضة تقوم النافلة مقام الفريضة مطلقا، بل قد تكون عقوبته على ترك الفريضة أعظم من ثواب النافلة**. فإن قيل: العبد إذا نام عن صلاة أو نسيها كان عليه أن يصليها إذا ذكرها بالنص والإجماع، فلو كان لها بدل من التطوعات لم يجب القضاء. قيل: هذا خطأ، فإن قيل هذا يقال في جميع مسقطات العقاب. فيقال: **إذا كان العبد يمكنه رفع العقوبة بالتوبة لم يُنه عن الفعل** ومعلوم أن العبد عليه أن يفعل المأمور ويترك المحظور؛ لأن الإخلال بذلك سبب للذم والعقاب، وإن جاز مع إخلاله أن يرتفع العقاب بهذه الأسباب. والله عليم حكيم رحيم، أمرهم بما يصلحهم ونهاهم عما يفسدهم، ثم إذا وقعوا في أسباب الهلاك لم يؤيسهم من رحمته، بل جعل لهم أسبابا يتوصلون بها إلى رفع الضرر عنهم. ولهذا قيل: **إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يُجرئهم على معاصي الله. ولهذا يؤمر العبد بالتوبة كلما أذنب. قال بعضهم لشيخه: إني أذنب، قال: تب، قال: ثم أعود، قال: تب، قال: ثم أعود، قال: تب قال: إلى متى قال: إلى أن تُحزن الشيطان**. وأيضا فإن من نام عن صلاة أو نسيها فصلاته إذا استيقظ أو ذكرها كفارة لها تُبرأ بها الذمة من المطالبة ويرتفع عنه الذم والعقاب، ويستوجب بذلك المدح والثواب. وأما ما يفعله من التطوعات فلا نعلم القدر الذي يقوم ثوابه مقام ذلك، ولو عُلم فقد لا يمكن فعله مع سائر الواجبات، ثم إذا قُدر أنه أُمر بما يقوم مقام ذلك صار واجبا فلا يكون تطوعا. والتطوعات شُرعت لمزيد التقرب إلى الله كما قال تعالى في الحديث الصحيح:"ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه"، الحديث. فإذا لم يكن العبد قد أدى الفرائض كما أُمر لم يحصل له مقصود النوافل ولا يظلمه الله، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة، بل يقيمها مقام نظيرها من الفرائض، كمن عليه ديون لأناس يريد أن يتطوع لهم بأشياء، فإن وفاهم وتطوع لهم كان عادلا محسنا، وإن وفاهم ولم يتطوع كان عادلا، وإن أعطاهم ما يقوم مقام دينهم وجعل ذلك تطوعا كان غالطا في جُعله، بل يكون من الواجب الذي يستحقونه.

ويقول الإمام ابن تيمية في مصنفه: الحسنة والسيئة

فصل: **الشكر والاستغفار**. فإذا تدبر العبد **علم أن ما هو فيه من الحسنات من فضل الله**، فشكر الله فزاده الله من فضله عملا صالحا ونعما يفيضها عليه، وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه بذنوبه استغفر وتاب فزال

عنه سبب الشر. **فيكون العبد دائما شاكرا مستغفرا فلا يزال الخير يتضاعف له والشر يندفع عنه**،كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته الحمد لله فيشكر الله، ثم يقول: **نستعينه ونستغفره، نستعينه على الطاعة ونستغفره من المعصية**، ثم يقول: ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، فيستعيذ به من الشر الذي في النفس ومن عقوبة عمله، فليس الشر إلا من نفسه ومن عمل نفسه فيستعيذ الله من شر النفس أن يعمل بسبب سيئاته الخطايا، ثم إذا عمل استعاذ بالله من سيئات عمله ومن عقوبات عمله، فاستعانه على الطاعة وأسبابها واستعاذ به من المعصية وعقابها. فعِلْم العبد بأن ما أصابه من حسنة فمن الله وما أصابه من سيئة فمن نفسه يوجب له هذا وهذا، فهو سبحانه فرق بينهما هنا بعد أن جمع بينهما في قوله:{قل كل من عند الله}، ثم بيّن فرق الذي ينتفعون به وهو أن **هذا الخير من نعمة الله فاشكروه يزدكم، وهذا الشر من ذنوبكم فاستغفروه يدفعه عنكم**. وقال الله تعالى:{وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون}، وقال تعالى:{الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير أن لا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله}. **التآسي بالسعداء**: والمذنب إذا استغفر ربه من ذنبه فقد تأسى بالسعداء من الأنبياء والمؤمنين كآدم وغيره، وإذا أصر واحتج بالقدر فقد تأسى بالأشقياء كإبليس ومن اتبعه من الغاوين. فكان من ذِكْرِه أن السيئة من نفس الإنسان بذنوبه، بعد أن ذكر أن الجميع من عند الله، تنبيها على **الاستغفار والتوبة والاستعاذة بالله من شر نفسه وسيئات عمله والدعاء بذلك في الصباح والمساء وعند المنام**، كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك أبا بكر الصديق أفضل الأمة، فيستغفر مما مضى ويستعيذ مما يُستقبل فيكون من حزب السعداء، وإذا علم أن الحسنة من الله الجزاء والعمل سأله أن يعينه على فعل الحسنات، بقوله:{إياك نعبد وإياك نستعين}، وبقوله:{اهدنا الصراط المستقيم}، وقوله:{ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا}، ونحو ذلك. وأما إذا أُخبر أن الجميع من عند الله فقط ولم يذكر الفرق، فإنه يحصل من هذه التسوية إعراض العاصي والمذنب عن ذم نفسه وعن التوبة من ذنوبها والاستعاذة من شرها، **بل وقام في نفسه أن يحتج على الله بالقدر**، وتلك حجة داحضة لا تنفعه بل تزيده عذابا وشقاء كما زادت إبليس، لما قال:{فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم}، وقال:{رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين}. وكالذين يقولون يوم القيامة:{لو أن الله هداني لكنت من المتقين}، وكالذين قالوا:{لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء}. **فمن احتج بالقدر على ما فعله من ذنوبه وأعرض عما أمر الله من التوبة والاستغفار والاستعانة بالله والاستعاذة به واستهدائه كان من أخسر الناس في الدنيا والآخرة**، فهذا من فوائد ذكر الفرق بين الجميع.

ففي المخلوقات نِعم من جهة حصول الهدى والإيمان والاعتبار والموعظة بها وهذه أفضل النعم. **نعمة الإيمان أفضل النعم**: فأفضل النعم نعمة الإيمان، وكل مخلوق من المخلوقات فهو الآيات التي يحصل بها ما يحصل من هذه النعمة. قال تعالى:{لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب}، وقال تعالى:{تبصرة وذكرى لكل عبد منيب}. **وما يصيب الإنسان إن كان يَسرُه فهو نعمة بيِّنة، وإن كان يسوءه فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياه ويُثاب بالصبر عليه، ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها**. {وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون}. وقد قال في الحديث: "**والله لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له**". واذا كان هذا وهذا فكلاهما من نعم الله عليه. **الصبر على السراء والضراء والشكر عليهما**: وكلتا النعمتين تحتاج مع **الشكر إلى الصبر**. أما نعمة الضراء فاحتياجها إلى الصبر ظاهر، وأما نعمة السراء فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها، **فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء**، كما قال بعض السلف **ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر**. وفي الحديث: "**أعوذ بك من فتنة الفقر وشر فتنة الغنى**". والفقر يصلح عليه خلق كثير والغِنى لا يصلح عليه إلا أقل منهم. ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين لأن فتنة الفقر أهون، وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر. لكن لما كان في السراء اللذة وفي الضراء الألم **اشتُهر ذكر الشكر في السراء والصبر في الضراء**، قال تعالى:{ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور إلا اللذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير}. ولأن صاحب السراء أحوج إلى الشكر وصاحب الضراء أحوج إلى الصبر فإن صبر هذا وشكر هذا واجب إذا تركه استحق العقاب. وأما صبر صاحب السراء فقد يكون مستحبا إذا كان عن فضول الشهوات، وقد يكون واجبا، ولكن لإتيانه بالشكر الذي هو حسنات يُغفر له ما يُغفر من سيئاته. وكذلك صاحب الضراء لا يكون الشكر في حقه مستحبا إذا كان شكرا يصير به من السابقين المقربين، وقد يكون تقصيره في الشكر مما يُغفر له لما يأتي به من الصبر. **فإن اجتماع الشكر والصبر جميعا يكون مع تألم النفس وتلذذها، يصبر على الألم ويشكر على النعم**. **ذنوب الإنسان**: وأما ذنوب الإنسان فهي من نفسه، ومع هذا فهي مع حسن العاقبة نعمة. وهي نعمة على غيره بما يحصل له بها من الاعتبار والهدى والإيمان، ولهذا كان من أحسن الدعاء قوله: "**اللهم لا تجعلني عبرة لغيري ولا تجعل أحدا أسعد بما علمتني مني**". وفي دعاء القرآن:{ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين}،{ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا}، كما فيه:{واجعلنا للمتقين إماما}، أي فاجعلنا أئمة لمن يقتدى بنا ويأتم ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى. والآلاء في اللغة هي النعم وهي تتضمن القدرة، قال ابن قتيبة: لما عدد الله في هذه السورة، سورة الرحمن نعماءه، ذكّر عباده آلاءه ونبههم على قدرته وجعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين نعمتين ليفهم النعم

ويقررهم بها. **القرآن كله تذكير بآلاء الله**: والله تعالى يُذكِّر في القرآن بآياته الدالة على قدرته وربوبيته، ويُذكر بآياته التي فيها نعمه وإحسانه إلى عباده، ويُذكر بآياته المبينة لحكمته تعالى وهي كلها متلازمة. فكل ما خلق فهو نعمة ودليل على قدرته وعلى حكمته. لكن نعمة الرزق والانتفاع بالمآكل والمشارب والمساكن والملابس ظاهرة لكل أحد، فلهذا يُستدل بها كما في سورة النحل وتسمى سورة النعم كما قاله قتادة وغيره. **الفرق بين الحمد والشكر**: وعلى هذا فكثير من الناس يقول الحمد أعم من الشكر من جهة أسبابه، فإنه يكون على نعمة وعلى غير نعمة، والشكر أعم من جهة أنواعه فإنه يكون بالقلب واللسان واليد. فإذا كان كل مخلوق فيه نعمة لم يكن الحمد إلا على نعمة، والحمد لله على كل حال لأنه ما من حال يقضيها إلا وهي نعمة على عباده. لكن هذا فَهْم من عرف ما في المخلوقات من النعم. وكذلك **كل ما يخلقه ففيه له حكمه فهو محمود عليه باعتبار تلك الحكمة**. والقدرة المجردة عن نعمة وحكمة لا يظهر فيها وصف حمد كالقادر الذي يفعل ما لا ينتفع به ولا ينفع به أحدا فهذا لا يُحمد. وعلى مذهب السلف له الملك وله الحمد تامين، وهو محمود على حكمته كما هو محمود على قدرته ورحمته. وقد قال:{شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم}، **فله الوحدانية في الهيئة وله العدل وله العزة والحكمة**. وهذه الأربعة إنما يثبتها السلف وأتباعهم، فمن قصر عن معرفة السُنة فقد نقَّص الرب بعض حقه. وإذا كان الحمد لا يقع إلا على نعمة فقد ثبت أنه رأس الشكر فهو أول الشكر. والحمد وإن كان على نعمته وعلى حكمته، فالشكر بالأعمال هو على نعمته، وهو عبادة له لإلهيته التي تتضمن حكمته، فقد صار مجموع الأمور داخلا في الشكر، **ولهذا عظَّم القرآن أمر الشكر ولم يعظم أمر الحمد مجردا إذا كان نوعا من الشكر**، وشرع الحمد الذي هو الشكر المقول أمام كل خطاب مع التوحيد، ففي الفاتحة الشكر والتوحيد. والخطب الشرعية لا بد فيها من الشكر والتوحيد. **والباقيات الصالحات نوعان، فسبحان الله وبحمده فيها الشكر والتنزيه والتعظيم، ولا إله إلا الله والله أكبر فيها التوحيد والتكبير**. وقد قال تعالى:{فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين}. **قضاء السيئات**: وهل الحمد على كل ما يُحمد به الممدوح وإن لم يكن باختياره، أو لا يكون الحمد إلا على الأمور الاختيارية كما قيل في الذم، فيه نظر. وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: "ربنا ولك الحمد ملء السماء وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد، أحق ماقال العبد، وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد"، هذا لفظ الحديث. أحق أفعل التفضيل، وقد غلط فيه طائفة من المصنفين فقالوا حق ما قال العبد. وهذا ليس لفظ الرسول وليس هو بقول سديد فإن العبد يقول الحق والباطل، بل حق ما يقوله الرب، كما قال تعالى:{فالحق والحق أقول}. ولكن لفظة أحق ما قال العبد خبر مبتدأ محذوف أي **الحمد أحق ما قال العبد**، أو **هذا وهو الحمد أحق ما قال العبد**. ففيه بيان أن الحمد لله أحق ما قاله العباد

ولهذا أوجب قوله في كل صلاة وأن تفتتح به الفاتحة، وأوجب قوله في كل خطبة وفي كل أمر ذي بال. والحمد ضد الذم، **والحمد يكون على محاسن المحمود مع المحبة له، كما أن الذم يكون على مساويه مع البغض له.** فإذا قيل إنه سبحانه يفعل الخير والحسنات وهو حكيم رحيم بعباده، أرحم بعباده من الوالدة بولدها، أوجب ذلك أن يحبه عباده ويحمدوه. فقوله أحق ما قال العبد يقتضى أن حمد الله أحق ما قاله العبد فله الحمد على كل حال لأنه لا يفعل إلا الخير والإحسان الذي يستحق الحمد عليه سبحانه وتعالى وإن كان العباد لا يعلمون. **حكمة خلق الإنسان**: وهو سبحانه خلق الإنسان وخلق نفسه متحركة بالطبع حركة لا بد فيها من الشر لحكمة بالغة ورحمة سابغة، فإذا قيل فلم يخلقها على غير هذا الوجه؟ قيل كان يكون ذلك خلقا غير الإنسان وكانت الحكمة التي خلقها بخلق الانسان لا تحصل، وهذا سؤال الملائكة حيث قالوا:{أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء}، ما لم تعلمه الملائكة فكيف يعلمه آحاد الناس؟ ونفس الإنسان خُلقت كما قال الله تعالى:{إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وغذا مسه الخير منوعا}، وقال تعالى:{خلق الإنسان من عجل}. فقد خُلِقت خلقة تستلزم وجود ما وجد منها لحكمة عظيمة ورحمة عميمة، فكان ذلك خيرا ورحمة وإن كان فيه شر إضافي كما تقدم، فهذا من جهة الغاية مع أنه لا يضاف الشر إلى الله. وأما الوجه الثاني من جهة السبب، فإن هذا الشر إنما وُجِد لعدم العلم والإرادة التي تُصلح النفس، فإنها خلقت بفطرتها تقتضي معرفة الله ومحبته، وقد هديت إلى علوم وأعمال تعينها على ذلك، وهذا كله من فضل الله وإحسانه. لكن النفس المذنبة لما لم يحصل لها من يكملها بل حصل لها من زين لها السيئات من شياطين الانس والجن مالت إلى ذلك وفعلت السيئات، فكان فعلها للسيئات مركبا من عدم ما ينفع، وهو الأفضل ووجود هؤلاء الذين خيروها، والعدم لا يضاف إلى الله. وهؤلاء القول فيهم كالقول فيها، خلقهم لحكمة. فلما كان عدم ما تعمل به وتصلح هو أحد السببين، وكان الشر المحض الذي لا خير فيه هو العدم المحض، والعدم لا يضاف إلى الله فإنه ليس شيئا، والله خالق كل شيء،كانت السيئات منها باعتبار ذاتها في نفسها مستلزمة للحركات الإرادية التي تحصل منها مع عدم ما يصلحها تلك السيئات. والعبد إذا اعترف وأقر بأن الله خالق أفعاله كلها فهو على وجهين. إن اعترف به إقرارا بخلق الله كل شيء بقدرته ونفوذ مشيئته، وإقرارا بكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، واعترافا بفقره وحاجته إلى الله، **وأنه إن لم يهده فهو ضال، وإن لم يتب عليه فهو مصر، وإن لم يغفر له فهو هالك**، خضع لعزته وحكمته فهذا حال المؤمنين الذين يرحمهم الله ويهديهم ويوفقهم لطاعته. وإن قال ذلك احتجاجا على الرب ودفعا للأمر والنهي عنه وإقامة لعذر نفسه، فهذا ذنب أعظم من الأول، وهذا من أتباع الشيطان، ولا يزيده ذلك إلا شرا، وقد ذكرنا أن الرب سبحانه محمود لنفسه ولإحسانه إلى خلقه ولذلك هو يستحق المحبة لنفسه ولإحسانه إلى عباده، **ويستحق أن يرضى العباد بقضائه لأنه حكمه عدل لا يفعل إلا خيرا وعدلا، ولأنه لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته سراء شكر**

فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له. فالمؤمن يرضى بقضائه لما يستحقه الرب لنفسه من الحمد والثناء ولأنه محسن إلى المؤمن. **قضاء السيئات**: وما تسأله طائفة من الناس وهو أنه صلى الله عليه وسلم قال "لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له"، **وقد قضى عليه بالسيئات الموجبة للعقاب، فكيف يكون ذلك خيرا**؟ وعنه جوابان: أحدهما، أن أعمال العباد لم تدخل في الحديث إنما دخل فيه ما يصيب الإنسان من النعم والمصائب، كما في قوله:{ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك}، ولهذا قال إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، **فجعل القضاء ما يصيبه من سراء وضراء**، هذا ظاهر لفظ الحديث فلا إشكال عليه. الوجه الثاني، أنه إذا قُدر أن الأعمال دخلت في هذا فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن". فإذا قُضي له بأن يُحسن فهذا مما يسره فيشكر الله عليه، وإذا قُضي عليه بسيئة فهي إنما تكون سيئة يستحق العقوبة عليها إذا لم يتب منها، فإن تاب أُبدلت حسنة فيشكر الله عليها، وإن لم يتب ابتلي بمصائب تكفرها فصبر عليها فيكون ذلك خيرا له. والرسول صلى الله عليه وسلم قال: "**لا يقضي الله للمؤمن**"، **والمؤمن هو الذي لا يصر على ذنب بل يتوب منه فيكون حسنة**، كما قد جاء في عدة آيات "إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة بعمله ولا يزال يتوب منه حتى يدخل بتوبته منه الجنة". والذنب يوجب ذل العبد وخضوعه ودعاء الله واستغفاره إياه وشهوده بفقره وحاجته إليه وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو، فيحصل للمؤمن بسبب الذنب من الحسنات ما لم يكن يحصل بدون ذلك فيكون هذا القضاء خيرا له. فهو في ذنوبه بين أمرين إما أن يتوب فيتوب الله عليه فيكون من التوابين الذين يحبهم الله، وإما أن يكفر عنه بمصائب تصيبه ضراء فيصبر عليها فيكفر عنه السيئات بتلك المصائب وبالصبر عليها ترتفع درجاته.

أهل الصبر والشكر: والممدوح هو القسم الثالث، وهم **الذين يدعونه ويتوبون إليه ويثبتون على عبادته والتوبة إليه في حال السراء، فيعبدونه ويطيعونه في السراء والضراء، وهم أهل الصبر والشكر**، كما ذكر ذلك عن أنبيائه عليهم السلام، قال تعالى:{وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين}. وقال تعالى:{ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي إنك أنت الوهاب}، وقال تعالى:{وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال كفلنيها وعزني في الخطاب قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود إنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب}. والمقصود هنا أنه لما كانت

الحسنة من إحسانه تعالى والمصائب من نفس الإنسان، **وإن كانت بقضاء الله وقدره**، وجب على العبد أن يشكر ربه سبحانه وأن يستغفره من ذنوبه وأن لا يتوكل إلا عليه وحده، فلا يأتي بالحسنات إلا هو. فأوجب ذلك للعبد توحيده والتوكل عليه وحده والشكر له وحده والاستغفار من الذنوب.

الحمد رأس الشكر والاستغفار: ففي هذا الحمد رأس الشكر والاستغفار، فإن ربنا غفور شكور، **فالحمد بإزاء النعمة والاستغفار بإزاء الذنوب**. وذلك تصديق قوله تعالى: {ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك}. ففي سيد الاستغفار "أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي"، وفي حديث أبي سعيد: "الحمد رأس الشكر والتوحيد"، كما جمع بينهما في أم القرآن فأولها تحميد وأوسطها توحيد وآخرها دعاء، وكما في قوله: {هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين}. وفي حديث الموطأ "أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، من قالها كتب الله له ألف حسنة وحط عنه ألف سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل قال مثلها أو زاد عليه، ومن قال في يوم مائة مرة سبحان الله وبحمده حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر".

ويقول الإمام البخاري في كتاب التوبة من مصنفه إحياء علوم الدين:

التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين، والتجرد للشر دون التلافى سجية الشياطين، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين. فالمتجرد للخير مَلَك مقرب عند الملِك الديان، والمتجرد للشر شيطان، والمتلافى للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان. فقد ازدُوِج في طينة الإنسان شائبتان، واصطُحِب فيه سجيتان، وكل عبد مصحح نَسَبِه، إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان. فالتائب قد أقام البرهان على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الإنسان، والمُصِّر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان. فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الإمكان، **فإن الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجنا محكما لا يخلصه إلا إحدى النارين، نار الندم أو نار جهنم**. فالإحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان.

التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة، **علم وحال وفعل**، فالعلم الأول والحال الثاني والفعل الثالث، والأول موجب للثاني والثاني موجب للثالث إيجابا اقتضاه إطراد سنة الله في المُلك والملكوت. أما **العلم** فهو معرفة عِظم ضرر الذنوب. فالعلم هو الأول وهو مَطْلَع هذه الخيرات، وأعني بهذا العلم **الإيمان واليقين**، فإن

الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة، **واليقين** عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب، فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب. فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول، فيُطلق اسم التوبة على مجموعها، وكثيرا ما يُطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده، ويُجعل العلم كالسابق والمقدمة، والترك كالثمرة والتابع المتأخر. وبهذا الاعتبار قال صلى الله عليه وسلم:"**الندم توبة**"، إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره، وعن عزم يتبعه ويتلوه، فيكون الندم محفوفا بطرفيه فيه، أعنى ثمرته ومثمره. اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار الدالة على وجوب التوبة، أخرج مسلم من حديث الأغر المزنى "يا أيها الناس توبوا إلى الله"، الحديث. وقال الله تعالى:{يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا}، الآية، ومعنى النصوح الخالص لله تعالى خاليا عن الشوائب، مأخوذ من النصح. ويدل على فضل التوبة قوله تعالى:{إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين}، وقال صلى الله عليه وسلم: "التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له"، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"الله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومه فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش، أو ما شاء الله، قال أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فالله تعالى أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته".

معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعِد عن الله المقرِب إلى الشيطان، ولا معنى للتوبة إلا هذا، وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان، إلى طريق الله تعالى. وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله، وغريزته التى هى عدة الشيطان متقدمة على غريزته التى هى عدة الملائكة، فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضروريا في حق كل إنسان نبيا كان أو غبيا. فلا تظنن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام، وقد قيل "فلا تحسبن هندا لها الغدر وحدها** سجية نفس كل غانية هند"، بل هو حكم أزلى مكتوب على جنس الإنس لا يمكن فرض خلافه، ما لم تتبدل السنة الإلهية التى لا مطمع في تبديلها. **التوبة فرض عين في حق كل شخص لا يُتصور أن يستغنى عنها أحد من البشر**، كما لم يستغن آدم. وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال، فهو أن كل بشر لا يخلو عن معصية بجوارحه، إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب، فإن خلا في بعض الأحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله. وكل ذلك نقص وله أسباب، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضده، **والمراد بالتوبة الرجوع**. ولا يُتصور الخلو في حق

الآدمي عن هذا النقص وإنما يتفاوتون في المقادير، فأما الأصل فلا بد منه. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام "إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة". ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال:{ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر}. **وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره!**

لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى في كل نفس من أنفاسه ولو عَمَّر عُمر نوح، وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة. ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال:"**لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعة لكان خليقا أن يحزنه ذلك إلى الممات، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله**". قال بعض العارفين أن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد اعلمه أنه بقى من عمرك ساعة وأنك لا تستأخر عنها طرفة عين، فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه، فلا يجد إليه سبيلا، وهو أول ما يظهر من معانى قوله تعالى:{وحيل بينهم وبين ما يشتهون}، وإليه الإشارة بقوله تعالى:{من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها}. فقيل الأجل القريب الذي يطلبه معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد: يا ملك الموت أخرنى يوما أعتذر فيه إلى ربى وأتوب وأتزود صالحا لنفسى، فيقول: فنيت الأيام فلا يوم، فيقول: فأخرنى ساعة، فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة. فيُغلَق عليه باب التوبة فيتغرغر بروحه وتتردد أنفاسه في شراسفه، **ويتجرع غصة اليأس عن التدارك، وحسرة الندامة على تضييع العمر**، فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأحوال، فإذا زهقت نفسه فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة، وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة. ولمثل هذا يقال:{وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال أنى تبت الآن}، وقوله تعالى:{إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب}، ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة، بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يُردِفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "اتبع السيئة الحسنة تمحها"، ولذلك قال لقمان لابنه: "**يا بنى لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتى بغتة**". ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين، أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو، الثاني أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو. ولذلك ورد في الخبر أن أكثر صياح أهل النار من التسويف، فما هلك من هلك إلا بالتسويف، فيكون تسويده القلب نقدا وجلاؤه بالطاعة نسيئة إلى أن يختطفه الموت، فيأتى الله بقلب غير سليم، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم. فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده، والعمر أمانة الله عنده، وكذا سائر أسباب الطاعة، فمن خان في الأمانة ولم يتدارك

خيانته فأمره مخطر. قال بعض العارفين: "إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام، أحدهما إذا خرج من بطن أمه يقول له: عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه، فإنظر كيف تحفظ الأمانة **وأنظر إلي كيف تلقاني**، والثاني عند خروج روحه يقول: عبدى ماذا صنعت في أمانتى عندك هل حفظتها حتى تلقانى على العهد فألقاك على الوفاء، أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب؟" وإليه الإشارة بقوله تعالى: {أوفوا بعهدى أوف بعهدكم}، وبقوله تعالى: {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون}.

وقال صلى الله عليه وسلم: "لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم". وقال أيضا: "إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة. فقيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: يكون نصب عينه تائبا منه فارا حتى يدخل الجنة". وقال صلى الله عليه وسلم: "**كفارة الذنب الندامة**". وقال صلى الله عليه وسلم: "التائب من الذنب كمن لا ذنب له". ويروى أن حبشيا قال يا رسول الله إنى كنت أعمل الفواحش فهل لى من توبة؟ قال نعم. فولى ثم رجع فقال: **يا رسول الله أكان يراني وأنا أعملها؟ قال نعم**، فصاح الحبشى صيحة خرجت فيها روحه". وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه مُحيت عنه في أم الكتاب". ويروى أن نبيا من أنبياء بنى إسرائيل أذنب، فأوحى الله تعالى إليه: وعزتى لئن عدت لأعذبنك. فقال: **يا رب أنت أنت وأنا أنا، وعزتك إن لم تعصمني لأعودن. فعصمه الله تعالى**. ويُروى أن رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود، ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان، فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق، إلا باب التوبة فإن عليه ملكا موكلا به لا يغلق، **فاعمل ولا تيأس**. قال عمر رضي الله عنه: اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة. وقال بعضهم أنا اعلم متى يغفر الله لي، قيل ومتى، قال إذا تاب على. وقال آخر: **أنا مِن أن أُحرم التوبة أخوف من أن أُحرم المغفرة**؛ أي المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة. ويُروى أنه كان في بنى إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة، ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك، فقال إلهى أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة، فإن رجعت إليك أتقبلنى؟ فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا: **أحببتنا فأحببناك، وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قبلناك**. فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة مقبولة لا محالة.

اعلم أن التوبة ترك الذنب، ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته. وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يُتوصل إليها إلا به واجبا. فمعرفة الذنوب إذن واجبة. **والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل**.

اعلم أن التائبين فى التوبة على أربع طبقات، الطبقة الأولى أن يتوب العاصى ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط من أمره ولا يُحدِّث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات، التى لا ينفك البشر عنها فى العادات مهما لم يكن فى رتبه النبوة. فهذا هو الاستقامة على التوبة وصاحبه هو السابق بالخيرات، المستبدل بالسيئات حسنات،

واسم هذه التوبة **التوبة النصوح**، واسم هذه النفس الساكنة **النفس المطمئنة** التى ترجع إلى ربها راضية مرضية. الطبقة الثانية تائب سلك طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعترية لا عن عمد وتجريد قصد، ولكن يُبتلى بها فى مجارى أحواله من غير أن يقدم عزما على الإقدام عليها، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التى تُعرضه لها، وهذه النفس جديرة بأن تكون هى **النفس اللوامة**، إذ تلوم صاحبها على ما تُستهدف له من الأحوال الذميمة، لا عن تصميم عزم وتخمين رأى وقصد. وهذه أيضا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهى أغلب أحوال التائبين، لأن الشر معجون بطينة الآدمى قلما ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات، فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات **فذلك فى غاية البعد**، وهؤلاء لهم حُسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى:{الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة}، فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه، قال تعالى:{والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم}، فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه. وفى الخبر: "لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة"، أى الحين بعد الحين. فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يُلِحق صاحبها بدرجة المصرين. الطبقة الثالثة أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوات فى بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان، وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها. هذا أمنيته فى حال قضاء الشهوة عند الفراغ يتندم ويقول ليتنى لم أفعله، وسأتوب عنه، وأجاهد نفسى فى قهرها، لكنه تُسوِّل نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم. فهذه النفس هى التى تسمى **النفس المُسوِّلة**، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم:{وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا}، فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو، فعسى الله أن يتوب عليه، وعاقبته مُخطِرة من حيث تسويفه وتأخيره، فربما يُختطف قبل التوبة ويقع أمره فى المشيئة، فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين، وإن غلبته شِقوته وقهرته شهوته فيُخشى أن يحق عليه فى الخاتمة ما سبق عليه من القول فى الأزل، لأنه مهما تعذر على المتفقة مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على أنه **سبق له فى الأزل أن يكون من الجاهلين** فيضعف الرجاء فى حقه، وإذا يُسِرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه **سبق له فى الأزل أن يكون من جملة العالمين**، فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب. فمهما وقع العبد فى ذنب فصار الذنب نقدا والتوبة نسيئة، كان هذا من علامات الخذلان. قال صلى الله عليه وسلم: "**أن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى**

يقول الناس أنه من أهلها ولا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها". **فإذن الخوف من الخاتمة قبل التوبة، وكل نَفَسٍ فهو خاتمة ما قبله، إذ يمكن أن يكون الموت متصلا به، فليراقب الأنفاس وإلا وقع فى المحذور، ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر.** الطبقة الرابعة أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يُحَدِّث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف على فعله، بل ينهمك انهماك الغافل فى اتباع شهواته. فهذا من جملة المصرين، وهذه النفس هى **النفس الأمارة بالسوء** الفرارة من الخير، ويُخاف على هذا سوء الخاتمة، وأمره فى مشيئة الله فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها، وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فيُنتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا تطلع عليه.

فإن قلت فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الإصرار، وفى الخبر "المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله". وكان بعضهم يقول أستغفر الله من قولى أستغفر الله، وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين، وقالت رابعة العدوية "**استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير**". فاعلم أنه قد ورد فى فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر، حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى:{وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون}، فكان بعض الصحابة يقول كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا، وبقى الاستغفار معنا، فإن ذهب هلكنا. فنقول الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة، كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة: استغفر الله، وكما يقول إذا سمع صفة النار: نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه، وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له، فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاله فى سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة، فهذه حسنة فى نفسها، فتصلح لأن تُدفع بها السيئة. وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة فى فضل الاستغفار، حتى قال صلى الله عليه وسلم: "ما أصر من استغفر ولو عاد فى اليوم سبعين مرة"، وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب. وللتوبة والاستغفار درجات، وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها، ولذلك قال سهل: **لا بد للعبد فى كل حال من مولاه، فأحسن أحواله أن يرجع إليه فى كل شيء، فإن عصى قال يا رب استر علي، فإذا فرغ من المعصية قال يا رب تب علي، فإذا تاب قال يا رب ارزقنى العصمة، وإذا عمل قال يا رب تقبل منى**. وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم التائب حبيب الله، فقال: إنما يكون حبيبا إذا كان فيه جميع ما ذُكر فى قوله تعالى:{التائبون العابدون}، الآية، وقال الحبيب هو الذى لا يُدخِل فيما يكرهه حبيبه. والمقصود أن للتوبة ثمرتين، إحداهما تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له، والثانية نيل الدرجات حتى يصير حبيبا. وللتكفير أيضا درجات، فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية، وبعضه تخفيف له. ويتفاوت ذلك بتفاوت

درجات التوبة، فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وإن خلا عن حل عقدة الإصرار من أوائل الدرجات، فليس يخلو عن الفائدة أصلا، فلا ينبغى أن تظن أن وجودها كعدمها. بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قول الله تعالى:{فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره} صِدق، وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر، كما لا تخلو شعيرة تطرح فى الميزان عن أثر، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها، ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرات، وذلك بالضرورة محال. بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يثقل فترفع كفه السيئات.

فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها، وذرات المعاصى فلا تنفيها.

فإذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا، بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة، إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان فى تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام، بل هو خير من السكوت عنه، فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه، وإنما يكون نقصانا بالإضافة إلى عمل القلب. ولذلك قال بعضهم لشيخه أبى عثمان المغربى إن لسانى فى بعض الأحوال يجرى بالذكر والقرآن وقلبى غافل، فقال: اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك فى الخير وعوّده الذكر، ولم يستعمله فى الشر، ولم يعوده الفضول. وما ذكره حق فإن تعود الجوارح للخير حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصى، فمن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذبا سبق لسانه إلى ما تعود فقال استغفر الله، ومن تعود الفضول سبق لسانه إلى قول ما أحمقك وما أقبح كذبك، ومن تعود الاستعاذة إذا حُدِّث بظهور مبادىء الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان نعوذ بالله، وإذا تعود الفضول قال لعنه الله، فيعصى فى إحدى الكلمتين ويسلم فى الأخرى، وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير، وهو من جملة معانى قوله تعالى:{إن الله لا يضيع أجر المحسنين}، ومعانى قوله تعالى:{وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما}. فانظر كيف ضاعفها، إذ جعل الاستغفار فى الغفلة عادة اللسان حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول، هذا تضعيف فى الدنيا لأدنى الطاعات، وتضعيف الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. فإياك وأن تلمح فى الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك عن العبادات، فإن هذه مكيدة روجها الشيطان بلعنته على المغرورين، وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر وأهل التفطن للخفايا والسرائر، فأى خير فى ذكرنا باللسان مع غفلة القلب... ولذلك قالت رابعة العدوية "استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير"، فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث أنه ذكر الله، **بل تذم غفلة القلب**، فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه، فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضا احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد. فهكذا ينبغى أن تفهم ذم ما يُذَم وحمد ما يُحمَد، والا جهلت معنى ما قال القائل الصادق "حسنات الأبرار سيئات المقربين"، فإن هذه أمور تثبت بالإضافة، فلا ينبغى أن تؤخذ من غير إضافة، بل ينبغى أن لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصى. ولذلك قال جعفر الصادق: إن الله تعالى خبأ ثلاثا فى ثلاث، رضاه فى طاعته، فلا تحقروا منها شيئا فلعل رضاه فيه، وغضبه فى

معاصيه فلا تُحقروا منها شيئا فلعل غضبه فيه، وخبأ ولايته فى عباده فلا تُحقروا منهم أحدا فلعله ولي الله تعالى، وزاد وخبأ إجابته فى دعائه فلا تتركوا الدعاء فربما كانت الإجابة فيه.

ويقول الإمام البخاري في كتاب الصبر والشكر:

الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر، وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعالى وإسمان من أسمائه الحسنى، إذ سمى نفسه صبورا وشكورا. فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطرى الإيمان، ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن. ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان، وكيف يُتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان ومن به الإيمان. والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان، وعن إدراك ما به الإيمان.

وقد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف، وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له، فقال عز من قائل:{وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا}، وقال تعالى:{وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا}، وقال تعالى:{ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون}، وقال تعالى:{أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا}، وقال تعالى:{إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب}. **فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب، إلا الصبر**. ولأجل كون الصوم من الصبر، وأنه نصف الصبر، قال الله: "تعالى الصوم لي وأنا أجزى به"، فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات. ووعد الصابرين بأنه معهم، فقال تعالى:{واصبروا إن الله مع الصابرين}؛ وعلق النصرة على الصبر، فقال تعالى:{بلى أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين}. وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم، فقال تعالى:{أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون}، **فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين**. واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول. وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم: "الصبر نصف الإيمان". وفي حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال: "أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا. فقال عمر: نعم يا رسول الله. قال وما علامة إيمانكم؟ قالوا: **نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء**. فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة" وأما الآثار فقد وُجد في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: "عليك بالصبر، واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر، الصبر في المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى. واعلم أن الصبر ملاك الإيمان،

وذلك بأن التقوى أفضل البر، والتقوى بالصبر." وقال علي كرم الله وجهه: "بُني الإيمان على أربع دعائم، اليقين والصبر والجهاد والعدل." وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ هذه الآية {إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب}، بكى وقال: **"واعجباه، أعطى وأثنى"، أي هو المُعطي للصبر وهو المُثنى**. وقال أبو الدرداء: "**ذروة الإيمان الصبر للحكم، والرضا بالقدر**".

اعلم أن الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين، وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها، وتارة يطلق عليهما جميعا. وللمعارف أبواب، وللأعمال أبواب، ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفا وسبعين بابا. ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين، وعلى مقتضى إطلاقين، أحدهما أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا، فيكون للإيمان ركنان أحدهما اليقين والآخر الصبر. والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين، والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين. إذ اليقين يُعرِّفه أن المعصية ضاره والطاعة نافعة، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر، وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل، فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار. ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما، فقال: "من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر"، الحديث إلى آخره. الاعتبار الثاني أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة، أو يضره فيهما. وله بالإضافة الى ما يضره حال الصبر، وبالإضافة الى ما ينفعه حال الشكر، فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار، كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول. وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه: "الإيمان نصفإن، نصف صبر ونصف شكر". ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين، وكان باعث الهوى قسمين: باعث من جهة الشهوة وباعث من جهة الغضب، فالشهوة لطلب اللذيذ والغضب للهرب من المؤلم، وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط، وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب، قال بهذا الاعتبار الصوم نصف الصبر، لأن **كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعا**. فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان. فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر، ولذلك لما سئل عليه الصلاة والسلام مرة عن الإيمان قال هو الصبر، لأنه أكثر أعماله وأعزها، كما قال الحج عرفة. وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا، فقال تعالى: {والصابرين في البأساء}، أي المصيبة، {والضراء}، أي الفقر، {وحين البأس}، أي المحاربة، {أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون}.

قال صلى الله عليه وسلم: "**أعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير**". وقال بعض العارفين "**أهل الصبر على ثلاثة مقامات، أولها ترك الشهوة وهذه درجة التائبين، وثانيها الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين، وثالثها المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة**

الصديقين". وكان هذا الانقسام يجري في صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا. واعلم أن الصبر أيضا ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم. فالصبر عن المحظورات فرض، وعلى المكاره نفل، والصبر على الأذى المحظور محظور، كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتا، وكمن يُقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهاره الغيرة ويسكت على ما يجري على أهله، فهذا الصبر محرم. والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع. فليكن الشرع محك الصبر، فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يخيل اليك أن جميعه محمود، بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة.

قال بعض العارفين "البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليها الا صديق". وقال سهل "**الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء**". ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا: "**ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر**". فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده، وعسى أن يُسترجع على القرب، وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها، ولا ينهمك في التنعم واللذة واللهو واللعب، وأن يرعى حقوق الله في ماله بالإنفاق، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق، وفي لسانه ببذل الصدق، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه. **وهذا الصبر متصل بالشكر، فلا يتم الا بالقيام بحق الشكر**، وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة ومن العصمة أن لا تقدر. النوع الثاني ما لا يوافق الهوى والطبع، وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، أو لا يرتبط باختيار كالمصائب والنوائب، أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته، كالتشفي من المؤذي بالانتقام منه. فهذه ثلاثة أقسام، القسم الأول ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية، وهما ضربان: الضرب الأول الطاعة، والعبد يحتاج إلى الصبر عليها، فالصبر على الطاعة شديد، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية، ولذلك قال بعض العارفين "**ما من نفس الا وهي مضمرة ما أظهر فرعون من قوله أنا ربكم الأعلى**". فإذن العبودية شاقة على النفس مطلقا، ثم من العبادات ما يُكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعا كالحج والجهاد. فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد، ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته فى ثلاث أحوال، الأولى قبل الطاعة، وذلك في تصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات وعقد العزم على الإخلاص والوفاء، وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس. وقد نبه صلى الله عليه وسلم إذ قال صلى الله عليه وسلم:"إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى"، وقال تعالى:{وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين}، **ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل**، فقال تعالى:{إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات}. الحالة الثانية، حالة العمل كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير،

فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ، وهذا أيضا من شدائد الصبر، ولعله المراد بقوله تعالى:{نِعم أجر العاملين الذين صبروا}، أي صبروا إلى تمام العمل. الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء، والصبر عن النظر إليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره، كما قال تعالى:{ولا تبطلوا أعمالكم}، وكما قال تعالى:{لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى}، **فمن لا يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله**. والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل، وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعا، وقد جمعهما الله تعالى في قوله:{إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى}. فالعدل هو الفرض، والإحسان هو النفل، وايتاء ذي القربى هو المروءة وصلة الرحم، وكل ذلك يحتاج إلى صبر. الضرب الثاني المعاصي، فما أحوج العبد إلى الصبر عنها، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى:{وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي}، وقال صلى الله عليه وسلم: "المهاجر من هجر السوء، والمجاهد من جاهد هواه". والمعاصي مقتضى باعث الهوى، **وأشد أنواع الصبر الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة، فإن العادة طبيعة خامسة**، القسم الثاني مالا يرتبط هجومه باختياره، وله اختيار في دفعه. كما لو أوذي بفعل أو قول وجُني عليه في نفسه أو ماله، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا، وتارة يكون فضيلة. قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: "ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى". وقال تعالى:{ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون}. وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا، فقال بعض الأعراب من المسلمين هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فأُخبر رسول الله فاحمرت وجنتاه ثم قال:"يرحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر". وقال تعالى:{ودع آذاهم وتوكل على الله}، وقال تعالى:{واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا}، وقال تعالى:{ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك}، الآية، وقال تعالى:{ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور}، أي تصبروا عن المكافأة، ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال تعالى:{وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير الصابرين}، وقال صلى الله عليه وسلم: "صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك". **فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر**، لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعا. **القسم الثالث** ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره، كالمصائب مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء، وبالجملة سائر أنواع البلاء، **فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر**. قال ابن عباس رضي الله عنهما: "الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه، صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة، وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة". وإنما فُضلت هذه الرتبة، مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهي من الفرائض، لأن كل مؤمن يقدر على

الصبر عن المحارم، **فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه الا الأنبياء، لأنه بضاعة الصديقين، فإن ذلك شديد على النفس**. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "أسألك من اليقين ما تهون علي به مصائب الدنيا"، فهذا صبر مستنده حسن اليقين. وقال أبو سليمان: "والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره". وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "قال الله عز وجل إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله وولده، ثم استقبل ذلك بصبر جميل، استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا". وقال صلى الله عليه وسلم: "**إنتظار الفرج بالصبر عبادة**"، وقال صلى الله عليه وسلم: "ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم اؤجرني بمصيبتي وأعقبني خيرا منها إلا فعل الله به ذلك". وقال أنس: "حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل قال يا جبريل ما جزاء من سلبت كريمتيه؟ قال سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، قال الله تعالى: جزاؤه الخلود في داري والنظر الى وجهي". وقال صلى الله عليه وسلم:"يقول الله عز وجل إذا ابتليت عبدي ببلاء **فصبر ولم يشكُني إلى عُواده**، أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه، فاذا أبرأتُه أبرأتَه ولا ذنب له، وإن توفيته فإلى رحمتي". وقال داود عليه السلام: "يا رب ما جزاء الحزين الذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك؟ قال جزاؤه أن أُلبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبدا". وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خطبته: "ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر، إلا كان ما عوضه منها أفضل مما أنتزع منه، وقرأ: إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب". وسئل فضيل عن الصبر فقال: "**هو الرضا بقضاء الله**، قيل وكيف ذلك؟ قال: **الراضي لا يتمنى فوق منزلته**". وقال داود لسليمان عليهما السلام: "يُستدل على تقوى المؤمن بثلاث، **حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات**". وقال نبينا صلى الله عليه وسلم: "**من إجلال الله ومعرفة حقِّه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك**". وقد قيل **الصبر الجميل هو أن لا يُعرف صاحب المصيبة من غيره، ولا يُخرجه عن حد الصابرين توجُع القلب ولا فيضان العين بالدمع، إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء**. ولأن البكاء تَوَجُّع القلب على الميت فإن ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الإنسان الى الموت، ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له أما نهيتنا عن هذا؟ فقال:"إن هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء". وكتب ابن ابي نجيح يعزي بعض الخلفاء: "إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أُخذ منه من عظَّم حق الله تعالى عنده فيما أبقاه له، واعلم أن الماضي قبلك هو الباقي لك، والباقي بعدك هو المأجور فيك، **واعلم أن أجر الصابرين به فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه**". فإذن مهما دفع الكراهة بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين. **نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب، وقد قيل من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة**.

بيان فضيلة الشكر. اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه مع أنه قال ولذكر الله أكبر، فقال تعالى: {فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون}، وقال تعالى: {ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم}، وقال تعالى: {وسنجزي الشاكرين}، وقال تعالى: {وقليل من عبادي الشكور}. وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن، فقال تعالى: {لئن شكرتم لأزيدنكم}، واستثنى في خمسة أشياء: في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة، فقال تعالى: {فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء}، وقال: {فيكشف ما تدعون اليه إن شاء}، وقال: {يرزق من يشاء بغير حساب} وقال: {ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}، وقال: {ويتوب الله على من يشاء}، وهو خلق من أخلاق الربوبية، إذ قال تعالى: {والله شكور حليم}، وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة، فقال تعالى: {وقالوا الحمد لله الذي صدقناه وعده}، وقال: {وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين}. وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر". وروي عن عطاء أنه قال دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبكت وقالت: وأي شأنه لم يكن عجبا، أتاني ليلة فدخل معي في فراشي، أو قالت في لحافي، حتى مس جلدي جلده ثم قال: "يا ابنة أبي بكر ذريني أتعبد لربي"، فقالت: قلت إني أحب قربك لكني أوثر هواك، فأذنت له فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره، ثم ركع فبكى، ثم سجد فبكى، ثم رفع رأسه فبكى، فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة، فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: "أفلا أكون عبدا شكورا، ولم لا أفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى علي أن في خلق السموات والأرض"، الآية، وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبدا. وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة، ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعا. وروى صلى الله عليه وسلم عنه أنه قال: "يُنادى يوم القيامة ليقم الحمادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة"، قيل ومن الحمادون؟ قال: "**الذين يشكرون الله تعالى على كل حال**". ولما نزل في الكنوز ما نزل قال عمر رضي الله عنه: أي المال نتخذ؟ فقال عليه السلام: "ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا أو قلبا شاكرا"، فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلا عن المال. وقال ابن مسعود الشكر نصف الإيمان.

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين، وهو أيضا ينتظم من علم وحال وعمل. فالعلم هو الأصل، فيورث الحال، والحال يورث العمل. فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم، والحال هو الفرح الحاصل بأنعامه، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه، ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان. فالأصل الأول العلم، وهو علم بثلاثة أمور: بعين النعمة، ووجه كونها نعمة في حقه، وبذات المنعم ووجود صفاته التي بها يتم الإنعام ويصدر الإنعام منه عليه. قال موسى عليه السلام في مناجاته "إلهي خلقت آدم بيدك وفعلت فكيف شكرك؟ فقال

الله عز وجل: **من علم أن كل ذلك مني فكانت معرفته شكرا**". فإذن لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه، فإن خالجك ريب في هذا لم تكن عارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم. ولذلك قال الشبلى رحمه الله "الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة". والشكر باللسان لإظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به، فقد قال صلى الله عليه وسلم لرجل كيف أصبحت قال بخير، فأعاد صلى الله عليه وسلم وسلم السؤال حتى قال في الثالثة **بخير أحمد الله وأشكره**، فقال صلى الله عليه وسلم وسلم: "هذا الذي أردت منك". وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر، أو يشكو يسكت، فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين، **وكيف لا تُقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء، فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضي به الضعف إلى الشكوى، أن تكون شكواه إلى الله تعالى**، فهو المُبلِي والقادر على إزالة البلاء. وذل العبد لمولاه عز، والشكوى إلى غيره ذل، وإظهار الذل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح، قال الله تعالى:{إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له}، وقال تعالى:{إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم}. اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه، إذ معنى الشكر إستعمال نعمه تعالى في محابه، ومعنى الكفر نقيض ذلك، إما بترك الإستعمال أو باستعمالها في مكارهه. ولتمييز ما يحبه الله تعالى مما يكرهه مدركان، أحدهما السمع ومستنده الآيات والأخبار، والثاني بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار، وهذا الأخير عسير وهو لأجل ذلك عزيز، فلذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق. ومعرفة ذلك تنبني على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد، فمن لا يطلع على أحكام الشرع في جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلا. وأما الثاني وهو النظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه، إذ ما خلق شيئا في العا لم إلا وفيه حكمة، وتحت الحكمة مقصود، وذلك المقصود هو المحبوب. **فمن فهم حكمة الله تعالى فى جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر**، فإذن قد صح ما ذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئا إلا وفيه حكمة، ولا خلق شيئا إلا وفيه نعمة، إما على جميع عباده أو على بعضهم. فإذن فى خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا إما على المبتلَى أو على غير المبتلى. فإذن كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان: الصبر والشكر جميعا. فإن قلت فهما متضادان فكيف يجتمعان، إذ لا صبر إلا على غم ولا شكر إلا على فرح، فاعلم أن الشيء الوحيد قد يُغتم به من وجه، ويُفرح به من وجه آخر، فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح. وفى كل فقر ومرض وخوف وبلاء فى الدنيا خمسة أمور ينبغى أن يفرح الغافل بها ويشكر عليها؛ أحدها أن كل مصيبة ومرض فيُتصور أن يكون أكبر منها، إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى، فلو ضعفها الله تعالى وزادها ماذا كان يرده ويحجزه؟ فليشكر إذ لم تكن أعظم منها فى الدنيا. الثاني أنه كان يمكن أن تكون مصيبته فى دينه، ولذلك استعاذ

عيسى عليه الصلاة والسلام فى دعائه إذ قال، اللهم لا تجعل مصيبتى فى دينى، وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه:"**ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى على فيه أربع نعم، إذ لم يكن فى دينى، وإذ لم يكن أعظم منه، وإذ لم أحرم الرضا به، وإذ أرجو الثواب عليه**". وقد روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصنى قال: "**لا تتهم الله فى شيء قضاه عليك**"، ونظر صلى الله عليه وسلم إلى السماء فضحك، فسئل فقال: "عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن إن قضى له بالسراء رضي وكان خيرا له وأن قضى له بالضراء رضي وكان خيرا له". فكل بلاء فى الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذى يؤلم فى الحال وينفع فى المآل. والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحم، وهم خارجون عنها من باب اللحد. فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة. فمن عرف هذا تُصور منه أن يشكر على البلايا، ومن لم يعرف هذه النعم فى البلاء لم يُتصور منه الشكر، لأن **الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة، ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يُتصور منه الشكر على المصيبة**. والأخبار الواردة فى الصبر على المصائب كثيرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من يرد الله به خيرا يصب منه". وقال صلى الله عليه وسلم:"قال الله تعالى إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ماله أو لده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا"، وقال عليه السلام: "ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى **إنا لله وأنه إليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتى وأعقبنى خيرا منها إلا فعل الله ذلك به**"، وقال صلى الله عليه وسلم: "قال الله تعالى من سلبته كريمتيه فجزاؤه الخلود فى دارى والنظر إلى وجهى". وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: شكا نبي من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه فقال يا رب العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوي (يمنع: المعجم العربي الأساسي) عنه الدنيا وتعرض له البلاء، ويكون الكافر لا يطيعك ويجترىء عليك وعلى معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا. فأوحى الله تعالى إليه "**إن العباد والبلاء لي وكل يسبح بحمدى، فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقانى فأجزيه بحسناته، ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له فى الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته فى الدنيا حتى يلقانى فأجزيه بسيئاته**". ورؤي أنه لما نزل قوله تعالى:{من يعمل سوءا يجز به} قال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه: كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض؟ ألست يصيبك الأذى؟ ألست تحزن؟ فهذا مما تجزون به"، يعنى أن **جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك**. وعن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج"، ثم قرأ قوله تعالى:{فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء}، يعنى لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخير حتى إذا فرحوا بما أوتوا، أى بما أُعطوا من الخير، أخذناهم بغتة. وعن الحسن البصري رحمه

الله أن رجلا من الصحابة رضي الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها فى الجاهلية فكلمها ثم تركها، فجعل الرجل يلتفت إليها وهو يمشى فصدمه حائط فأثر فى وجهه، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال صلى الله عليه وسلم:"**إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه فى الدنيا**". وقال علي كرم الله وجهه: "ألا أخبركم بأرجى آية فى القرآن؟ قالوا بلى. فقرأ عليهم {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير}. **فالمصائب فى الدنيا بكسب الأوزار، فإذا عاقبه الله فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا، وإن عفا عنه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة**. وعن أنس رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها، ولا قطرت قطرة أحب إلى الله من قطرة دم أهريقت فى سبيل الله، أو قطرة دمع فى سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله، وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى صلاة الفريضة وخطوة إلى صلة الرحم". ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض فقال يا بنى لأن تكون فى ميزانى أحب إلى من أن أكون فى ميزانك، فقال يا أبت لأن يكون ما تحب أحب إلى من أن يكون ما أحب. وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه نُعي إليه ابنة له فاسترجع وقال: عورة سترها الله تعالى، ومؤنة كفاها الله، وأجر قد ساقة الله تعالى. ثم نزل فصلى ركعتين، ثم قال: **قد صنعنا ما أمر الله تعالى** قال تعالى:{واستعينوا بالصبر والصلاة}. وقال بعض العلماء **إن الله ليبتلى العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمشى على الأرض وماله ذنب**. وقال الفضيل: **إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير**. وقال أبو مسعود البلخى: من أصيب بمصيبة فمزق ثوبا أو ضرب صدرا فكأنما أخذ رمحا يريد أن يقاتل به ربه عز وجل. وقال لقمان رحمه الله لابنه: يا بنى إن الذهب يُجَرَب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء، فإذا أحب الله قوما ابتلاهم، **فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط**. وأوحى الله تعالى إلى عزير عليه السلام: **إذا نزلت بك بلية فلا تشكنى إلى خلقى وأشك إلي، كما لا أشكوك إلى ملائكتى إذا صعدت مساويك وفضائحك**". نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل فى الدنيا والآخرة.

اعلم أن الناس اختلفوا فى ذلك فقال قائلون الصبر أفضل من الشكر، وقال آخرون الشكر أفضل، وقال آخرون هما سيان، وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الأحوال. **وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية، وفيهما يتحد الصبر والشكر، لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة، لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة، والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى. فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين، فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالإضافة إلى باعث الهوى، ويسمى شكرا بالإضافة إلى باعث الدين. إذ باعث الدين إنما خُلق لهذه الحكمة، وهو أن يُصرع به باعث الشهوة، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة**. فهما عبارتان عن

معنى واحد فكيف يفضل الشيء على نفسه؟ فإذن مجارى الصبر ثلاثة: الطاعة والمعصية والبلاء، وقد ظهر حكمهما في الطاعة والمعصية، وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة. فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل، لأنه تضمن الصبر أيضا وفيه فرح بنعمة الله تعالى فإن للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية، **ووراءها الرضا وهو مقام وراء الصبر**، ووراءه الشكر على البلاء، وهو وراء الرضا، إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح، والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به. وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها، ويدخل في جملتها أمور دونها **فإن حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر، والإعتذار من قلة الشكر شكر، والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر، والإعتراف بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر، والعلم بأن الشكر أيضا نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر، وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر، وشكر الوسائط شكر، إذ قال عليه السلام: "من لم يشكر الناس لم يشكر الله"، وقلة الإعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر، وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر.**